قراءة فى كتاب

قراءة فى كتاب (4)

" اختلاق اسرائيل القديمة اسكات التاريخ الفلسطيني"

ماهر عابد

مركز رؤية للتنمية السياسية

مركز رؤية للتنمية السياسية

2017

العنوان: "اختلاف اسرائيل القديمة اسكات التاريخ الفلسطيني"

السلسلة: قراءة فى كتاب (4)

الكاتب: **ماهر عابد**

الشهر/ السنة : ابريل/2017

جميع الحقوق محفوظة لمركز رؤية للتنمية السياسية © 2017

يسعى مركز رؤية للتنمية السياسية أن يكون مرجعية مختصة في قضايا التنمية السياسية وصناعة القرار، ومساهماً في تعزيز قيم الديمقراطية والتعددية والاعتدال والتسامح. ويسعى المركز إلى تنمية القدرات والإمكانيات السياسية لدى الأفراد والجماعات والأحزاب في المنطقة، بما يخدم بناء مجتمعات ودول مدنية وديمقراطية قائمة على مبادئ حق تقرير المصير والحرية، بما يساعد على نبذ العنف والتطرف، والمساهمة في إنجاز الشعوب لحقوقها السياسية والمدنية لاسيما الشعب الفلسطيني.

ويهدف المركز إلى مساعدة الكفاءات العلمية والبحثية في مجال العلوم الإنسانية في تطوير مهاراتها و وتنميتها، وتوفير الدعم السياسي والأكاديمي للفلسطينيين، ورعاية الطاقات الثقافية، وتنمية المهارات السياسية لدى الشباب. ويسعى إلى فهم قضايا المجتمع المدني، وتمكين المرأة من خلال أدوات البحث العلمي في الحقول الاجتماعية والإنسانية والسياسية.

Vision Center for Political Development

İkitelli Organize San. Bölgesi Mah. Hürriyet Bulvarı Enkoop Sanayi Sitesi No:70/33

Başakşehir / Istanbul.

Tel: +90 2126310107

www.vision-pd.org/

لا تخفي الحركة الصهيونية منطلقاتها ومبرراتها الإيديولوجية في تبرير سيطرتها على فلسطين، فالفكر الصهيوني يقوم على فكرة إيجاد دولة يهودية نقية يجتمع فيها كافة يهود العالم، وهذه الدولة تمثل "الأرض التي وعدها الله لبني إسرائيل"، ويمثل هذا الزعم أساس الرواية الصهيونية عن فلسطين، فعلى هذه الأرض وقعت كل أحداث "التاريخ اليهودي"، وأسباط بني إسرائيل عاشوا على تلال وهضاب "أرض إسرائيل"، ولم ينقطعوا عنها شعوريًا ولا ماديًا.

وبالرغم من أن هذه الرواية تبدو "إيديولوجية رومانسية حالمة قافزة فوق حقائق التاريخ"، إلا أن الصهيونية الأكاديمية ممثلة عبر كتابها ومؤرخيها التوراتيين تمكنت من جعل هذا التصور الخيالي -غير القائم على دليل- "حقيقة علمية" لا تخضع للجدل، وبالتالي فقد بُنيت على "حقيقة أن هذه الأرض هي أرض التوراة، وهي نفسها اسرائيل القديمة"، إنها حقهم- أي اليهود- الذي يجب أن يسترجعوه.

حاول بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي أن يؤصل لوجوده في فلسطين بالاستناد إلى تلك الروايات حين قال في خطاب له: "اسمي الأول بنيامين ويرجع إلى آلاف السنين، لبنيامين بن يعقوب، والمعروف باسم إسرائيل، يعقوب وأولاده الاثنا عشر كانون يجوبون تلال يهودا والسامرة منذ 4000 عام مضت ومنذ ذلك الحين يعيش اليهود في هذه الأرض"، مضيفًا: "إن صلة الشعب اليهودي بأرض إسرائيل مستمرة منذ آلاف الأعوام، ويهودا والسامرة، الأماكن التي سار فيها إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسليمان، هذه ليست أرضًا غريبة، إنها أرض آبائنا"، وهذا القول تعززه الزعيمة الصهيونية جولدا مائير بقولها: "لا يوجد شيء اسمه شعب فلسطيني، حتى أنه ليس علينا أن نأتي ونُخرجهم من البلاد، فهم ليسوا موجودين".

يناقش كتاب "اختلاق إسرائيل القديمة" بإسهاب كيف تتم عملية تزوير التاريخ وفرض "حقائق" مشوهة، وجعلها مقبولة أكاديميًا في كل المنتديات والمحافل الأكاديمية والسياسية، ويطرح تساؤلات مهمة عن مدى صدقية هذه الرواية وأسباب انتشارها في العالم الغربي في سياق تاريخي معاصر، وعبر أكثر من 300 صفحة موزعة في 6 فصول يشرح الكاتب كيف تمت –في العالم الغربي بالأساس- عملية اختلاق لواقع لا يوجد عليه دليل انه كان موجودا وهو(اسرائيل القديمة)، مترافقة مع عملية نفي وطمس لحقيقة

الوجود الفلسطيني المستمر منذ الاف السنين الى اليوم، بحيث يغدو هذا الوجود لا قيمة له ولا تاريخ وايضا لا مستقبل.

ولعل أكثر ما يشير له المؤلف المتخصص في الدراسات الدينية "كيث وايتلام" في هذا الكتاب ويلخص فكرته الرئيسة هي: أن "فلسطين القديمة" تناوبت عليها الحضارات طوال الوقت، وأن "إسرائيل القديمة" لم تكن إلا "خيطًا رفيعًا في نسيج التاريخ الفلسطيني الغني الممتد".

إسرائيل القديمة قبل 3000 عام؟!

في البداية يطرح الكاتب ما يعتقده الباحثون التوراتيون حول أن فترة نشوء إسرائيل القديمة كانت (حوالي 1200 ق.م)، هذا التصور المستحوذ على تفكيرهم دفعهم إلى بذل الجهود المضنية -المتخذة شكلاً علميًا- لتركيز الحفريات الأثرية على هذه الفترة بشكل خاص، وذلك لتدعيم معتقداتهم بالأدلة المادية، فقد آمن هؤلاء الباحثون بشكل مطلق أن فلسطين لم تكن إلا إسرائيل القديمة، وأن كل أثر يجدونه على هذه الأرض سيشكل دعامة جديدة تعطيهم الحق بالمطالبة بها، وطرد سكانها منها دون أي شعور بتأنيب الضمير، أو الإحساس بأنهم يرتكبون جريمة بحق شعب آخر، وفي الواقع إن تصوراتهم القومية وحماسهم لدولتهم الجديدة التي يعتبرونها امتداداً للتاريخ القديم أعمى أبصارهم عن المعلومات التي يحملها علم الآثار وتتناقض مع أوهامهم، وباتوا بحكم الأمر الواقع مجرد جنود احتلال يعملون في ساحة تزوير وتزييف لتأكيد "الحق الصهيوني الأصيل" بهذه الارض، وليسوا باحثين عن الحقائق العلمية التاريخية.

يؤكد الكتاب أن (التنقيبات الأثرية) كشفت عن جوانب متعددة من التراث الثقافي والروحي الضخم الذي خلفته الشعوب العربية القديمة (السامية) وبخاصة الكنعانية, التي استقرت في فلسطين مع مطلع العصر التاريخي، ولكن السلطات الصهيونية المسيطرة على الكشف الأثري تعمل بدأب على طمس معالم الحضارة العربية الكنعانية، وهو يوضح أنه لن يتم التسليم بأن "إمبراطورية داود التوراتية" ليست سوى ضرب من الخيال إلا بعد بحث وتحقيق وفهم لتاريخ فلسطين في أواخر العصر البرونزي وأوائل العصر الحديدي, وهي الفترة التي تعتقد الرواية التوراتية أنها شهدت نشوء مملكة داود، وهو يعتبر أن اكتشاف المواقع الأثرية وجعلها "إسرائيلية" في هذه المنطقة سيكون له نتائج سياسية خطيرة، وأن التاريخ الفلسطيني في الفترة التوراتية (هذه التسمية متعارف عليها في

الغرب), وهي الفترة التي سبقت الفترة اليونانية الرومانية والبيزنطية, قد تم التخلي عنها وتبني وجهة النظر التوراتية المعتمدة في الغرب على أنها حقائق مطلقة، وفي هذا السياق فالكاتب يعتقد أن التصور بوجود قوة إمبراطورية عظمى اسمها "إسرائيل القديمة" لا يهدف إلا إلى تحقيق أغراض سياسية في الوقت الحاضر.

يشرح الكتاب كيف أن الباحثين التوراتيين اعتبروا التوراة كتابًا تاريخيًا, فجاؤوا إلى فلسطين "والكتاب المقدس في يد، والمجراف في اليد الأخرى"، وأنهم لم يختلفوا إلا في تفسير أسباب نشوء إسرائيل القديمة، فبعضهم رأى أنها نشأت عن طريق قيام جماعات إسرائيلية بغزو هذه الأرض، في حين قال آخرون أنها نشأت عن طريق الهجرة والتغلغل السلمي إلى فلسطين، ووضح آخرون أن إسرائيل القديمة نشأت عن طريق "ثورة داخلية"، وبرغم هذه الاختلافات فإن الثابت لديهم هو مصادرة التاريخ الفلسطيني لمصلحة إسرائيل, وتم تصوير إسرائيل القديمة على شكل دولة قومية حديثة، وبالرغم من ظهور باحثين توراتيين – لاحقًا- حاولوا تحدي هذه الرؤى المطروحة، إلا أنهم لم يستطيعوا الانسلاخ من الرواية التوراتية واعتبارها المصدر الرئيس لرؤيتهم لتاريخ فلسطين القديم، وهو الأمر الذي ساهم في إسكات التاريخ الفلسطيني وطمسه كموضوع قائم بذاته.

الانتداب البريطاني والرواية التوراتية:

ومن الأدلة على مدى تغلغل الرواية التوراتية؛ أنها باتت مرجعًا معتمدًا للمنظمات السياسية الدولية لإقرار "حقوق مستقبلية" تمسّ حياة الشعوب، فصك الانتداب على فلسطين -والذي أعلن مشروعه من قبل عصبة الأمم المتحدة بتاريخ 1921/7/6 وصودق عليه في 1922\7\24 ووضع موضع التنفيذ في 1923/9/29- والمكون من 28 بندًا ينص في المادة 21 على أنه: "خلال اثني عشر شهرًا من تاريخه, سوف تؤمن حكومة الانتداب إصدار قانون الآثار وتتأكد من تنفيذه"، وهذا الأمر الذي أشرف على تنفيذه بحماس كبير الصهيوني هربرت صموئيل أول مندوب سام إلى فلسطين (1920-1925) حيث باشر بخطوات عملية لتحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود, وتوفير الظروف السياسية والاقتصادية والإدارية لتحقيق هذا الهدف بكل ما أوتي من طاقة, مما كان له أثر بعيد في إرساء قواعد متينة تقوم عليها "دولة إسرائيل" سنة 1948، ومن الضروري هنا الانتباه إلى أن إشارة صك الانتداب إلى "الرابط التاريخي" بين اليهود المشتتين في العالم و"أرض آبائهم" -كما سمّوها-؛ كان يمثل اعترافًا صريحًا من عصبة الأمم بالرواية التاريخية التوراتية، وهي

الرواية التي تعتنقها الصهيونية كحركة سياسية أخذت على عاتقها تحويل التاريخ الفلسطيني إلى " تاريخ إسرائيل القديمة"، وحاولت عبر البعثات "العلمية" المتخصصة بالآثار تعزيز روايتها، وذلك للقول –كما عبر حاييم وايزمان، وهو أهم زعمائها- "لسنا قادمين ولكننا عائدون"، وما يبدو واضحًا أن الصهيونية اعتبرت توفير المناخ الملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب عن الآثار بالغ الأهمية، ولا يقل أهمية عن توفير المناخ السياسي والإداري والاقتصادي لإنشاء الوطن القومي اليهودي.

مقدمة المؤلف:

مقدمة الكتاب جاءت بعنوان: "إسكات التاريخ الفلسطيني"، وفيها يشرح الكتاب كيف تجاهلت الدراسات التوراتية تاريخ فلسطين القديم وأسكتته، نظرًا لأن مجال اهتمام هذه الدراسات هو إسرائيل القديمة التي تم فهمها وتصويرها على أنها منبع الحضارة الغربية ومنبع التوحيد، وهو يوضح في مقدمته أن بحثه هذا ليس تاريخًا آخر "لإسرائيل القديمة", كما أنه ليس تاريخًا "لفلسطين القديمة"، وإن كان يهتم بهما معًا، وهو يسعى لإيضاح فكرة مفادها: أن تاريخ فلسطين القديم موضوع قائم بذاته يحتاج إلى التحرر من قبضة الدراسات التوراتية، ولا يجوز أن يبقى مجرد خلفية لتواريخ "إسرائيل ويهودا أو فترة الهيكل الثاني اليهودية"، كما يوضح الكاتب أن ما يطلق عليه "خطاب الدراسات التوراتية" هو عبارة عن شبكة متداخلة وقوية من الأفكار والتوكيدات التي يعتقد ممارسوها أنها نتاج الدراسات العلمية الموضوعية, بينما في الحقيقة ليست إلا ممارسة للقوة، ويضيف أن: نمو الحركة الوطنية الفلسطينية لم يؤد إلى استرداد الماضي كما حصل في الهند وأفريقيا وأستراليا، وهو يرى أن المشكلة هنا تكمن في أن مفهوم "التاريخ الفلسطيني" يقتصر على الفترة الحديثة وذلك في محاولة- فلسطينية- لتوضيح القضية الوطنية في مواجهة النفي والتشريد, وبذلك فقد تُرك التاريخ القديم لـ "إسرائيل" والغرب، مع أن هذا التاريخ لا يعدو كونه تفصيلاً صغيرًا مهمًا في لوحة كبيرة، ولا يبدو إلا لحظة قصيرة في التاريخ الفلسطيني.

الفصل الأول: نصوص منحازة وتواريخ متصدعة:

في هذا الفصل يشرح الكتاب كيف أن تصور الماضي وتمثله أمر تكتنفه الصعوبات, ليس لمجرد غموض المعلومات التاريخية وقلّتها, ولكن لأن إعادة بناء التاريخ -الماضي أو الحاضر سواء أكان مكتوبًا أو شفاهيًا- هو عمل سياسي بالدرجة الأولى، ومن الواضح أن رؤيتنا للماضي هي شيء سياسي بالدرجة الأولى, كما أن لها تداعيات مهمة في العالم الحديث، وهو إذ ينتقد استخدام التاريخ التوراتي لإثبات صحة مواقف سياسية معاصرة فانه يرفض بشدة دس قيم شكّلتها التجارب المعاصرة والأماني الحديثة في قلب البحث الأكاديمي "الموضوعي"، ويتابع: من الواضح إذن أن أحد العوامل المهمة في محاولتنا لفهم "تاريخ إسرائيل القديم", وتواريخ الكيانات الأخرى, وإن كان هذا العامل غير المصرح به دائمًا, هو أن كتابة التاريخ هي عمل سياسي, وكيف أن تلك المواقف والآراء السياسية تحدد برنامج البحث وتؤثر بشكل قوي في نتائج أبحاث المؤرخين, وأن هذا البرنامج, يؤدي إلى كتابة "نصوص منحازة"، ويبين كيف أن الدول القومية الأوروبية, ابتداء من الثورة الصناعية فصاعدًا, قد أنشأت تواريخ قومية, لتبرير مكانتها في العالم, وجعلها مثالاً يحتذى، ويخلص هذا الفصل إلى أن النموذج المهيمن على كتابة التاريخ الإسرائيلي كان, ولا يزال, ذلك التاريخ الذي يتخذ شكل الكيان القومي الموحد الذي يبحث عن مساحة قومية من الأرض, وهو يكافح من أجل الإبقاء على هويته القومية وعلى الأرض من خلال الأزمات التاريخية.

الفصل الثاني: إنكار الزمان والمكان على التاريخ الفلسطيني:

باعتقادي أن هذا الفصل هو الأهم في الكتاب، وفيه يشرح كيف تتم عملية إلغاء الفلسطيني زمانيًا ومكانيًا، فخطاب الدراسات التوراتية بينما يدعي أنه فوق مستوى الصراعات السياسية المعاصرة، يستمر في إنكار المكان والزمان على الفلسطيني مهما طالبوا بحقهم في الماضي، وهذا الخطاب التوراتي قد أعطى الزمان وبخاصة من العصر البرونزي المتأخر إلى العصر الحديدي، وكذلك المكان الجغرافي لـ "إسرائيل" فقط.

في سياق إنكار المكان على الفلسطيني فإن الدراسات التوراتية توظف عدداً مذهلاً من التعبيرات للدلالة على المنطقة، وتشمل: (الأرض المقدسة، أرض التوراة، آرتس يسرائيل، أرض إسرائيل، يهودا، كنعان، شرق الأردن، فلسطين السورية، فلسطين، الشرق)، وفيما

يتعلق بالعديد من الأعمال الأساسية في التاريخ والجغرافيا والدراسات التاريخية حول المنطقة تبدو كل هذه التعبيرات للقارئ العادي مترادفة بل وحتى حيادية، إلا أن تسمية الأرض تتضمن معاني السيطرة على هذه الأرض: فتعبيرات مثل :الشرق والشرق الأوسط أو الشرق الأدنى تدل على فهم أوروبي ضيق للعالم، وعلى هذا الأساس فليس هناك أي معنى جوهري لفلسطين بحد ذاتها، بل إنها تستعمل فقط لكونها الخلفية الأساسية لفهم التطور الديني الذي هو أساس الحضارة الغربية. وفي هذا السياق لا تملك فلسطين تاريخًا خاصًا بها، فتاريخها هو تاريخ "إسرائيل" الذي هو تاريخ الغرب، وهذا الغياب للتاريخ تتوافق معه فكرة غياب السكان من هذه الأرض، أما فلسطين فهي مجرد معرض للمقتنيات الدينية النادرة، فالأرض تبدو فارغة ومجردة من أي اهتمام فيما عدا الآثار القديمة التي تهمنا في فهم تطور الحضارة الغربية، وليس للأرض التي يمكن تسميتها فلسطين أي قيمة كامنة في ذاتها، ولكنها تصبح ميدانًا للتاريخ الحقيقي والأصيل لـ "إسرائيل"، وسكانها لا يمكن أن يطلق عليهم "فلسطينيون" بل هم عموريون أو كنعانيون أو إسرائيليون.

إن رفض استعمال صفة واحدة لنعت سكان المنطقة هو إنكار للوجود وللتاريخ الفلسطيني، ولهذا فإن فلسطين توصف على أنها منطقة صغيرة وفقيرة ومعزولة، وهذه أوصاف شائعة في الدراسات التوراتية، ثم يتغير هذا الوضع وتصبح فلسطين مرموقة فقط بسبب الوجود التاريخي لـ "إسرائيل" فيها، وعلى هذا فإن الدراسات التوراتية – بحسب الكاتب- متورطة في تجريد الفلسطينيين من وطنهم، ولهذا مقابل سياسي معاصر يتمثل في السيطرة الصهيونية على الأرض وسلب الشعب الفلسطيني من أرضه وتصويره على أنه شعب بلا تاريخ أو تجريده من هذا التاريخ، وهكذا نرى أن الخطاب التوراتي يجعل الفلسطينيين شعبًا غير ذي أهمية، وفي نهاية الأمر غير موجود، ويُقدم هذا على أنه بحث علمي موضوعي، وهو يحمل وراءه ثقل المؤسسات الفكرية الغربية وهي أسيرة الفهم الشائع للحاضر الذي جعلت فيه دولة "إسرائيل" المعاصرة الأرض الفارغة والقاحلة تثمر.

هذا الفهم "الإيديولوجي" المتحيز كان له تأثير قوي في أعمال التنقيب عن الآثار خلال هذا القرن، ويوضح الدستور الخاص بصندوق استكشاف فلسطين الذي أنشئ عام 1865 الافتراض الشائع الذي مفاده أن فلسطين لم تكن مهمة في ذاتها بل لأسباب أخرى متصلة بالتوراة، فالأهداف المعلنة لهذا الصندوق هي: البحث الدقيق والمنهجي عن الآثار والطوبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية وعادات وتقاليد شعب الأرض المقدسة

بهدف فهم التوراة، وبهذا تصبح فلسطين الأرض المقدسة وتاريخها وتضاريسها لا قيمة لها في ذاتها ولا تكتسب قيمتها إلا بقدر ما هي مهمة لفهم التوراة، تلك هي النظريات المسيطرة على الدراسات التوراتية في الغرب بحيث إن التاريخ الفلسطيني نفسه يصبح غير موجود وتاريخ المنطقة ذاتها يصبح تاريخ إسرائيل القديمة كما صورته صيغ التراث التوراتي.

ويبين الكاتب أن الباحثين التوراتيين عندما يطلقون اسم فلسطين فهم لا يستخدمونه إلا لكونه تعبيرًا مختصرًا عن أرض التوراة، فالاعتبارات الدينية والتعريفات التوراتية هي التي تفرض نفسها على أي فهم لتاريخ المنطقة، والخريطة المدرجة في بداية كتاب شهير يدعى "فلسطين العهد القديم" تؤكد ذلك، حيث نجد أن تسميات المناطق كلها تتبع أسماء القبائل التوراتية: فهناك زبولون ومنسّى وإفرايم وبنيامين، وعلى هذا؛ فالادعاءات الدينية للتوراة العبرية كان لها الأفضلية في تحديد اسم الأرض، وبهذا الشكل يتم إسكات أي ادعاء بديل لفهم المنطقة وفهم ماضيها.

لقد تم وبفعالية كبيرة إنكار تاريخ فلسطين القديمة وزمانها الخاص، بل إنه أصبح موضوعًا لطغيان الزمان التوراتي من جراء تقسيم التوراة العبرية إلى فترات جامدة، وهذا التقسيم كان العامل الأساس الذي حدد مجرى خطاب الدراسات التوراتية. فتم تقسيم تاريخ المنطقة بشكل متقن في خانات، فكانت هناك مرحلة الآباء ثم الخروج والغزو والاستيطان، ثم تبعتها مرحلة مملكتي داود وسليمان الموحدتين، وممالك إسرائيل ويهودا المنقسمة، ثم النفي وبعد ذلك الإصلاح، وعلى هذا الأساس يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي، إن طغيان الزمان التوراتي هذا يُسكت بفعالية التاريخ الفلسطيني.

الفصل الثالث: البحث عن إسرائيل القديمة

يشرح المؤلف كيف أنه في خضم البحث المستميت من قبل المؤرخين التوراتيين عن إسرائيل القديمة، ليس هناك أي ذكر لحقوق السكان الفلسطينيين الأصليين في الأرض، فتُستبعد حقوقهم وصوتهم وتاريخهم، وهنا لا يتعلق الحديث بغزو واحتلال، بل بهدية، ولا بتجريد السكان من أرضهم، بل بتملك أرض أعطاها لهم الإله، ويتم تبرير أعمال الإبادة والقتل الهمجي -الذي تذكره الروايات التوراتية- بحق السكان الأصليين لأنهم كانوا أصحاب ديانات فاسقة منحطة لا أخلاقية، وبالتالي تصبح إبادتهم جزءًا من المهمة الإلهية الموكلة للشعب المختار، ويستحقون عليها الشكر لا النقد.

وما يبدو مذهلاً -بالنسبة للكاتب- هو المحاولة المحمومة -لدى الباحثين التوراتيين- لتسويق فكرة أن إبادة الإسرائيليين للسكان المحليين ومصادرة أرضهم كان يصب في مصلحتهم -أي مصلحة السكان المحليين-، وهو نفس الخطاب الاستعماري التقليدي الذي يبرر الإمبريالية والاستعمار، والقائل إن القوة الاستعمارية تتصرف بالنيابة عن السكان الأصليين لتحقيق مصالحهم وجعلهم أكثر رقيًا.

إن الافتراض الذي يطرحه هؤلاء الباحثون والقائل إن غزو الإسرائيليين لفلسطين من قبل هو جزء من الوحي الإلهي، وأن أرض فلسطين هي الهدية الإلهية لـ "إسرائيل"، وأنها أحد أهم الأعمال الإلهية الطيبة؛ يؤكد عزل التاريخ (أي الزمان) الفلسطيني واحتلال المكان الفلسطيني، وهكذا فإن فلسطين تصبح بسرعة مذهلة في الخطاب التوراتي أرض اليهود، وبحسب هذا الافتراض فإن "إسرائيل القديمة" منفصلة تمامًا عن محيطها، كما توصف "إسرائيل الحديثة" عادة بأنها منفصلة عن باقي بلدان الشرق الأوسط، ويصف هؤلاء الباحثون الإسرائيليين القدماء بأنهم كانوا يحملون نظامًا أخلاقيًا وسياسيًا متميزًا، وقد أرادوا إدخاله إلى المنطقة -لاحظ أن هذا التوصيف تتبناه "إسرائيل" الحالية والتي تصر على أنها جسر متقدم للحضارة الأوروبية المتقدمة في عالم الشرق المتخلف-، ويلاحظ هنا أن الخطاب التوراتي يمر مرورًا سريعًا على أي إنجاز ثقافي للسكان الفلسطينيين القدماء، ويتم التركيز على أنهم كانوا فاسدين عقائديًا وعاجزين أخلاقيًا وغير مؤهلين لتكوين نظام سياسي موحد، وبالتالي فلا حق لهم بذكرهم في التاريخ، وحتى هذه الأرض فليسوا أصلاء فيها، بل هم طارئون ومؤقتون، ولو كانوا موجودين قبل الإسرائيليين بقرون طويلة جدًا، فهذا لا يعطيهم أي حق. لقد ظلت الدراسات التوراتية تغض النظر عن رؤية السكان المحليين، وفي الحالات التي اعترفت فيها بهم كان يتم وصفهم بأنهم غير جديرين بالثقة، وأنهم منحرفون أو بدائيون وغير أخلاقيين، ولذلك فهم غير جديرين بأن تؤخذ مطالبهم الشرعية على محمل الجد.

يوضح الباحث أن التغيرات في المنظورات التي تُقرأ بها التوراة العبرية والتي أثارت تساؤلات مهمة حول مسلمات النقد التاريخي الشائع، وكذلك استخدام التراث التوراتي لإعادة بناء الماضي، بالإضافة إلى المعلومات الأثرية المتراكمة من الحفريات في مواقع متفرقة، وكذلك أعمال المسح المحلية في فلسطين، برهنت على أن النظريات المختلفة التي يطرحها الباحثون التوراتيون ليست إلا اختلاقًا لماض متخيل، وكل هذا يلقى مزيداً من الضوء على مدى اختلاق فكرة إسرائيل القديمة.

الفصل الرابع: إنشاء دولة إسرائيلية

يبرَّر الحق في امتلاك الأرض-حاليًا- على أساس السابقة التاريخية بوجود دولة إسرائيلية مستقلة وذات سيادة في المنطقة، هذه الدولة تدعي الحق في الأرض، وتتجسد مثل هذه المزاعم في الإشارات المتكررة إلى "أرض إسرائيل التاريخية" في أيامنا هذه، كما أن إعلان الاستقلال الإسرائيلي لعام ١٩٤٨ يشير إلى إعادة إنشاء "الدولة اليهودية"، وما هذا التعبير إلا إعادة صياغة لوعد بلفور الذي تحدث عن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وفي حرص الصهاينة على التعبير بصراحة عن "الحق في إنشاء دولة يهودية" لا مجرد وطن قومي في إعلان الاستقلال، وذلك على أساس السابقة التاريخية، وعلى هذا الأساس فإن "دولة إسرائيل" المعاصرة ما هي إلا إعادة بناء لما كان موجوداً في الماضي، ويرى المؤلف بأنه وبالرغم من أن الشواهد الأثارية تهدم ادعاءات الدراسات التوراتية بوجود إمبراطورية داود، فإن هذه الدراسات صامتة بشكل غريب في محاولتها تفسير عدم وجود الدلائل الآثارية التي تثبت وجود مثل تلك الإمبراطورية المجيدة، وحاولت بدلاً من ذلك تقديم تصور لهذا الماضي مبني على التراث التوراتي، وترسيخ تجريد الفلسطينيين من ماضيهم وأرضهم عبر تكرار الادعاءات التي تربط الماضي بالحاضر، كالادعاء بامتلاك الأرض، والتركيز على فساد وعدم كفاءة وفشل الأنظمة السياسية المحلية في الوصول إلى ذروة الحضارة، وتأكيد الحاجة إلى مهاجرين قادمين من خارج فلسطين لتحقيق إمكانيات الأرض، ويضيف الباحث أن: الإصرار على الاستمرارية بين الماضي والحاضر لا يُنظر إليه إلا في إطار الاستمرارية بين "إسرائيل" التي حكمها داود و"دولة إسرائيل" المعاصرة.

الفصل الخامس: البحث مستمر

يشرح الكاتب في هذا الفصل كيف هيمن على التاريخ الفلسطيني القديم كيان واحد اسمه إسرائيل القديمة، وأن الذي أسكت التاريخ الفلسطيني هو كيان صغير بمعنى الكلمة، وقد سعت الدراسات التوراتية لوأد أي محاولة لإعادة النظر في مفهومنا لتاريخ إسرائيل القديمة، ولتطوير تاريخ فلسطيني كموضوع قائم بذاته ومتحرر من قيود الدراسات التوراتية، فالدراسات التوراتية ليست متورطة في الإمبريالية الناظرة إلى الوراء فحسب، بل إنها تآمرت في عملية السلب.

إن بناء الكيان الذهني "المُختلق" إسرائيل القديمة قد أسكت تاريخ السكان الأصليين في فلسطين في العصر الحديدي، وقد افترض الباحثون التوراتيون لمدة طويلة أنه لا يوجد فرق بين إسرائيل القديمة وسكان فلسطين في العصر الحديدي.

وبرأي المؤلف فإنه إذا أريد لفكرة وجود تاريخ فلسطيني أن تتحقق فلا بد أن يتم تحديد ومواجهة التأثيرات الأيديولوجية الكامنة في كل الدراسات والروايات التاريخية، فالامتناع عن توضيح هذه الفوارق، وعدم القدرة على الاعتراف بأن بناءات الماضي التي هيمنت على خطاب الدراسات التوراتية في القرن الأخير أو قبل ذلك قد شكلت مواقف سياسية واجتماعية، وكل هذا كان من شأنه أن يضمن طمس التاريخ الفلسطيني وإسكاته.

الفصل السادس: رد الاعتبار للتاريخ الفلسطيني

يقرر المؤلف في هذا الفصل أن الدراسات اللاهوتية والدينية استأثرت من خلال خطاب الدراسات التوراتية بحق تمثيل التاريخ الفلسطيني القديم في فترة العصر البرونزي المتأخر، وبداية العصر الحديدي، وفترات أخرى كثيرة غيرها، وبات التاريخ الفلسطيني أحد التواريخ الكثيرة المستبعدة من التاريخ من جراء التسلط الذي مارسه المتخصصون في الدراسات التوراتية والمؤرخون وعلماء الآثار على تاريخ فلسطين والشرق الأدنى، وكانت نتيجة ذلك حرمان

التاريخ الفلسطيني من مكان خاص به في الخطاب الأكاديمي الغربي.

ولقد تزامن اهتمام أوروبا الإستراتيجي بفلسطين مع سعيها معرفة جذور حضارتها كما حددتها إسرائيل القديمة والتوراة، وفي قبول المتخصصين التوراتيين بشكل عام بتصوّر الماضي كما جاء في التراث التوراتي، حيث بدؤوا بالبحث عن الوجود المادي لـ "إسرائيل" من خلال الآثار والمباني الباقية في تلك الأرض، فكان ما وجدوه أو ما كانوا ميالين إلى أن يجدوه هو "إسرائيل" شبيهة بدولهم القومية، فقد صُورت "إسرائيل" بأنها دولة ناشئة تبحث عن وطن قومي وتستطيع أن تعبر فيه عن وعيها القومي.

وفي القرن العشرين هيمن هذا الإسقاط لإسرائيل القديمة على فترة العصر البرونزي المتأخر وبداية العصر الحديدي، وقد ازدادت أهمية هذا التمثيل للماضي وأصبح أكثر نفوذاً مع صعود الحركة الصهيونية التي هي في جوهرها مشروع أوروبي، وكان تاريخها يُنظر إليه على أنه مرآة عاكسة لغزو إسرائيل القديمة للأرض الذي أعقبه إنشاء دولة قومية تمكنت بسرعة من السيطرة على المنطقة، وبشكل عام فإن ما نراه هنا هو رواية كانت في جوهرها جزءاً من النتائج الحتمية للدراسات التوراتية، وقد ظلت حتى السبعينيات دون أن يشك أحد في صحتها، بالرغم من إعادة النظر في العديد من التفاصيل، وأصبح تصوير الماضي على هذا النحو حقيقة يصعب الشك فيها نتيجة لتكرارها المستمر على ألسنة أهم الأكاديميين المتخصصين في المجال التوراتي، وكذلك في الكتب الأكاديمية

والشعبية معًا، لقد كانت الدراسات التوراتية جزءاً مهمّا من النظام المعقد والعوامل الأكاديمية والاقتصادية والعسكرية التي أنكرت على الفلسطينيين مكانًا في العالم المعاصر وفي التاريخ.

معلومات الكتاب

العنوان: اختلاق اسرائيل القديمة

المؤلف: كيث وايتلام، ترجمة: سحر الهنيدي، مراجعة: فؤاد زكريا.

عرض: ماهر عابد . مركز رؤية للتنمية السياسية.

الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت

تاريخ النشر: الطبعة الاولى 1999.

عدد الصفحات: 349 صفحة